تكريم الرابطة المحمديَّة لعلماء المسلمين في المغرب للدكتور/ طه جابر العلواني.

تحت عنوان: رحلة رجل مع القرآن.

(2014/6/2).

بسم الله الرحمن الرحيم

رحلتي مع القرآن المجيد

أ.د: طه جابر العلواني

بدأت رحلتي مع القرآن المجيد في وقت مبكر من حياتي، وذلك قبل إتمام الخامسة من عمري، كان ذلك بالاستماع إلى قراءة والدي في صلاة الفجر بسورة طه، والإنسان، وبقراءة عمي الكثيرة في الفجر وغيره بسورة التوبة، وقراءة والدتي لقصار السور في صلواتها وخارج الصلاة، ومنها قراءتها لبعض قصار السور في صلاة الفجر التي توفيت بعده بقليل، وكنت طفلا صغيرا لم أجاوز الخامسة من عمري.

ثم انتقلت إلى مرحلة تعلم القرآن على أيدي من يعلمونه من "الملالي" كما كانوا يلقبونهم آنذاك في بلادنا، كان في مدينة الفلوجة الصغيرة آنذاك اثنان منهم، أخذ عمي بيدي وذهب بي إلى الملا مشحن الفرحان، كان الرجل يؤم المصلين في مسجد صغير اتخذه في بيته، وكان يعلم القرآن فيه، سلم عمي على الرجل وقال جئتك بولدنا هذا أريدك أن تعلمه القرآن والقراءة والكتابة والحساب، فقال الملا مشحن أبشر سأعلمه ذلك كله في ستة أشهر إن شاء الله، فمخايل الذكاء والنجابة بادية عليه. قال عمي: على بركة الله إذن، وليبدأ من الآن، ووضع العم في يد الرجل شيئا من المال، وسلم وانصرف.

كنت سيال الذهن، سريع الحفظ يكفي أن أقرأ الشيء وأردده مرة أو مرتين لأحفظه. بدأ مشواري مع الملا مشحن الذي بدأ يعلمني قصار السور في جزء عم، يقرأ ونردد خلفه، وفي يد كل منا مصحف مفتوح على السور التي يقرأها، كنت بعد ترديد تلك السور من الملا ومن معي من الصبيان إذا جاءني الدور أجدني قد حفظت السورة دون نظر في المصحف، فأرددها بشكل سليم، وكان الملا يعجب لذلك، ويثني علي، وينقلني من مرحلة إلى أخرى حتى انتهيت من جزء عم، فأخذني الملا إلى الوالد والعم فرحا بما أنجزته وأنجز؛ ليتقاضى منهما الجعل الخاص بإنهاء ذلك الجزء، فأبدى العم رغبته في اختباري بنفسه، ففتح المصحف وأخذ يضع إصبعه على كلمات منه يطلب مني قراءتها؛ فلم أعرف، فإذا طلب مني قراءة السورة من حفظي انطلقت بقراءتها بشكل سليم، فأدرك أنه لم يعلمني القراءة، ولا شيئا من الحساب، كما كان قد طلب منه أولا؛ فغضب، وقال بهذه الطريقة لن يتعلم الولد ما نريدك أن تعلمه، فغضب الملا وتوعدني، وأعلن أنه لن ينخدع بقراءتي السليمة بعد اليوم.

لكنني قلت لعمي: إن هذا الملا مشغول، والوقت الذي يعطينيه محدود فأرجو أن تأخذني إلى الملا الثاني الملا سالم الكبيسي، ففعل العم، وصحبني إلى منزل الملا الكبيسي، حيث يدرس القرآن لصبيان مثلي، وحذر الملا من أن أخرج من عنده أحفظ ولكن لا أقرأ ولا أكتب، وأوصاه كثيرا بأن يحملني على أن أقرأ وأتعلم القراءة والحساب ويتأكد من ذلك بنفسه، ففعل الرجل وكان حريصا جدا؛ فاستفدت به وتعلمت القراءة والكتابة والحساب إضافة إلى الحفظ، ولم تمض غير تسعة أشهر حتى ختمت القرآن كله، وأتقنت القراءة والكتابة والحساب، كان ذلك في نهاية عام دراسي، وكان علينا أن ننتظر حتى انتهاء العطلة الصيفية وذلك للدخول إلى المدرسة الابتدائية، لكنني قضيت ذلك الصيف بتحضير نفسي وإعدادها بالقراءة مع عمي، ووالدي، بانتظار بدء السنة الدراسية للالتحاق بالمدرسة الابتدائية الأولى للبنين، وهي أهم مدرسة كانت

ابتدائية في مدينة الفلوجة، وما إن بدأ العام الدراسي حتى أخذني الوالد هذه المرة إلى مدير المدرسة الذي كان اسمه نجم الدين المدلجي، فاختبرني الرجل وقال: إن مستواك يفوق مستوى الصف الثالث الابتدائي، ولكن النظام لا يسمح بأن أضعك في الصف الثالث، إذ حدود صلاحياتي أن أضعك في الصف الثاني، وهكذا سجلت في الصف الثاني من الدراسة الابتدائية.

وبدأ مشوار جديد لم يكن فيه تركيز على القرآن الكريم، بل كان هناك درس واحد في الأسبوع نحفظ فيه قصار سور معدودة، واستمر الحال حتى انتهت المرحلة الابتدائية، وآن الآوان لدخول المتوسطة في الطريق إلى الإعدادية فالجامعة، وهنا كان لابد من التحديد، ويبدأ الناس عادة يتحدثون عن مستقبل أبنائهم وماذا يريدون أن يروا منهم في المستقبل، فذلك يريد ابنه طبيبا والآخر ضابطا أو مهندسا أو مدرسا، وكانت الأسرة عندي كلها تشجع على الطب، وترشحني لأن أكون طبيبا لما كانوا يرونه فيَّ من الذكاء حسب دعواهم.

انتهت المرحلة الابتدائية دون شيء يذكر في هذا المجال، لكنني كنت أعوض شيئا من ذلك النقص بالحضور إلى المسجد والمشاركة في بعض الحلقات التي تعقد فيه، خاصة بعد صلاة العشاء من ليلة الاثنين وليلة الجمعة، وبعد التخرج في الابتدائية كان علي أن أختار بين المدرسة المتوسطة وبين الدراسات الدينية، حيث نقل إلينا الشيخ عبد العزيز سالم السامرائي، من مدرسة هيت الدينية؛ ليكون إماما وخطيبا ومدرسا في المدرسة الآصفية الدينية في الفلوجة، فدخلت المتوسطة في بداية الأمر.

وفيما كنت أعد ملفي للذهاب به إلى المتوسطة أديت صلاة المغرب في المسجد المقابل لمركز الشرطة الذي عملت فيه أوراقي التي تحتاجها عملية التقديم للمتوسطة، فوقفت إلى جانب شيخ مهيب الطلعة يقرأ بسورة الواقعة بعد صلاة المغرب بتأن وخشوع، فوقفت إلى جانبه أستمع لقراءته معجبا، وبعد أن فرغ الرجل من قراءة السورة التفت إلي وأحس بأنني كنت أتابع قراءته،

وقال لي من أنت؟ فذكرت له اسمي واسم والدي، فعرف الوالد، وقال: ماذا تفعل؟ قلت: أريد أن أعد أوراقي وملفي للتقديم إلى المتوسطة، قال: وماذا ستستفيد؟ قلت: إذا أنهيت هذه المرحلة دخلت الإعدادية. قال: ثم ماذا؟ قلت له: ثم أدخل الكلية، قال: وأي كلية تريد؟ قلت له: كلية الطب، قال: ما رأيك في علم تكسب فيه الدنيا والآخرة؟ قلت له: وما هو؟ قال: أن تدخل المدرسة الدينية؛ فتكون طبيبا ولكن للقلوب، والعقول، قلت له: والله ذلك ما أتمناه، ولكن أين هذه المدرسة؟ قال: هي في هذا المسجد الذي صلينا فيه، قلت له: إذن أعطني فرصة استشير بها والدي لأقرر. قال: غدا أريدك أن تأتي إلي في محلي الفلاني في السوق، وكان الرجل يبيع الأقمشة في سوق الفلوجة، المسمى بالجديد، فذهبت إليه وصحبني إلى الوالد، فقال لوالدي: أنت لديك ولدان الآن، ونسأل الله أن يبارك لك، ويعطيك المزيد، فما رأيك لو وهبت أحدهما لله (جل شأنه)، وتركته يتعلم العلوم الشرعية على يدي الشيخ عبد العزيز السامرائي، فقال له الوالد: إذا كانت تلك رغبته فلا مانع لدي؛ فأخذني الرجل وذهب بي إلى الشيخ السامرائي، وقال له: لقد جئتك بشاب ذكي، ومن أسرة طيبة، أريدك أن تعنى به، وتحسن تعليمه، فرحب الرجل، وقال: مرحبا وسأبذل جهدي معه إن شاء الله.

وهكذا بدأت مشوارا جديدا بدراسة العلوم الشرعية، لكن الشيخ لم يدرسني بنفسه، بل أوكل أمر تدريسي إلى أحد تلامذته الذين جاؤوا معه من هيت، فلم أسترح كثيرا لذلك، وبعد يومين أو ثلاثة أخذت ملفي وذهبت إلى المدرسة المتوسطة، وسجلت وبدأت الدوام فيها، ولكنني سرعان ما شعرت بتعجلي وخطئي، فكيف استبدل دراسة عادية في مدرسة لا علاقة لها بالمسجد، بدراسة تجري في المسجد نفسه. وظللت ألوم نفسي لمدة يومين على ذهابي إلى المتوسطة وتركي المدرسة الدينية.

ولكن سرعان ما ذهبت إلى رجل صالح آخر بعد أن رأيت رؤيا بأن رجلا يهوديا اسمه صالح كان محله لصناعة وبيع المشغولات الفضية بجوار محل والدي، فإذا به يهديني كتاب التوراة، فعجبت للأمر، وذهبت بي الظنون كل مذهب، فذهبت لآداء صلاة العصر، وتعمدت أن أبحث عن الحاج محمد الفياض يرحمه الله، وهو رجل صالح، زاهد، معروف في مدينتنا، فصليت بجانبه، وما إن سلم من الصلاة حتى سألني وهو يعرفني حق المعرفة لكنه أراد تأنيبي فقال: من أنت؟ قلت له: فلان، قال: لا أنت لست بفلان، أنا أعرف فلانا طالب علم، من طلاب المدرسة الدينية، يرتدي على رأسه الغترة والعقال، وأنت حاسر الرأس، ولا أراك إلا قد تغيرت، فما الذي حدث؟

فذكرت له أن الشيخ لم يدرسني بنفسه، وكلف ياسين منصور بتعليمي، وأنا لم آتي للتعلم على يدي ياسين، بل جئت للتعلم على يدي الشيخ عبد العزيز، وذكرت له منامي، وكيف أعطاني صالح اليهودي التوارة، فقال الرجل: هذه بشارة خير، ولابد لك أن تعود إلى المدرسة الدينية، فالتوراة هنا تعني أنك ستكون من علماء هذه الأمة؛ لأن هناك أثرا أو حديثا يقول: "علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل"، فأنت ستكون من أهل العلم إن شاء الله تعالى إذا واظبت، وصبرت، فذكرت له خجلي من الوالد الذي لم يعترض على شيء فعلته حتى الآن، ولا أريد أن أغضبه، قال: قم بنا نذهب لزيارة والدك، فذهبت معه، ورحب الوالد به ترحيبا شديدا وقال الرجل له: إن طه لا يصلح إلا للدراسة الدينية، وأنه سيكون من علماء هذه الأمة، وأرجو أن لا يكون لديك مانع من ذلك، فقال الوالد يرحمه الله: لقد قلت له: لك علي أن أوفر لك ما تختار، فاختر ما تريد وأنا معك، والآن ما دام يرى العودة إلى المدرسة الدينية فإني أرحب بذلك، ويستطيع أن يعود من الغد، وأنت يا حاج محمد كلم الشيخ عبد العزيز، وسوي الأمر، وعدت

في اليوم التالي إلى المدرسة الدينية، وبدأ الشيخ يدرسني مع مجموعة مختارة من الطلاب بنفسه، وهنا دخلنا في مرحلة جديدة من مراحل العلاقة مع القرآن المجيد.

كان الشيخ يرحمه الله شديد الحرص على أن يميز طلابه عن أقرانهم من طلاب المدارس العادية من المتوسطة والإعدادية وغيرها، فأمرنا على الفور بالذهاب إلى الحلاق وحلق شعورنا على الزيرو، ولبس الغترة والعقال، وكنا ما نزال صغارا على ذلك، ولكن تلك هي أوامره، كانت الغترة والعقال تصل إلى ما دون وسط الجسم، وشُرَّابة العقال كثيرا ما كانت تصل إلى الأرض، مع جلابية (دشداشة) يشترط الشيخ أن تكون سميكة لا تشف وعريضة لا تصف، مع ضرورة صناعة صندوق صغير عند النجار مربع، إذا جلسنا في حلقة الدرس وضعنا فيه كتبنا، فنستخرجها من الصندوق بطريقة معينة ثم نضعها عليه بنفس الطريقة التي يرسمها، ونستعمل هذا الصندوق الصغير للكتابة عليه أيضا عندما يأمر الشيخ بالكتابة.

وبدأنا بدراسة مجموعة من المتون: الآجرومية في النحو، ومتن صغير في الصرف مماثل للآجرومية، وكراس كتبه شيخنا لخص فيه البيان والبديع في البلاغة، ومتن المقاصد النووية السبعة في التصوف، وتفسير الجلالين، ومتن الغاية والتقريب للشافعية متنا، ومتن مراقي الفلاح للحنفية. وبعد مرحلة يسيرة انتهينا من ذلك، فبدأ يدرسنا: متن الألفية، أي ألفية ابن مالك بشرحه البهجة المرضية، ومتن الحضرمية وشرحها في الفقه الشافعي، وجمع الجوامع في أصول الفقه لابن السبكي، ومختارات من صحيح البخاري.

أمَّا القرآن فكان يعارض بشدة من يريد منا حفظ القرآن، بل يعاقبه؛ لأنَّه استقر في ذهنه وأذهان شيوخه أنَّ حفظ القرآن يشغل الطالب عن مذاكرة دروسه، فلا يستطيع أن يكون إلا قارئًا ولن يكون عالمًا، وكنت وزميل لي هو عبد الستار الملا طه ـ يرحمه الله ـ سريعي الحفظ، فكنا نحفظ ما يدرسه لنا الشيخ عن ظهر قلب، وكان حفظ القرآن أيسر بكثير علينا من حفظ

أي شيء آخر، فكان الشيخ إذا أخبره أحد زملائنا أو لاحظ علينا أنَّنا نحفظ القرآن يشتد غضبه، وقد يعاقب على ذلك، وكل حجته بأنَّ القرآن الكريم سريع الحفظ سريع النسيان، ولابد للحافظ أن يداوم على مراجعة ما يحفظ يوميا وإلا فسينسى، وإذا انشغل بمداورة القرآن لم يستطع أن يعطي العلوم الشرعية التي يدرسها العناية الضرورية، وذلك خطأ كبير من شيخنا يغفر الله لنا وله.

ويبدو أنَّه لم يكن وحده في ذلك الخطأ، بل كان تصورا سائدا في المدارس الدينية السنية في تلك المرحلة، وبعد تلك الفترة التي حفظت فيها كل تلك المتون: الآجرومية، وقطر الندى، والشذور، والألفية بشرحها البهجة المرضية، ومغني اللبيب، وتفسير الجلالين، وجوهرة التوحيد، ومنظومة الشيباني، والحضرمية، وما إلى ذلك، لكنه يغفر الله لنا وله حال بيننا وبين حفظ القرآن الكريم، ولم تكن هناك عناية تذكر بكتاب الله، ولم نعلم أو نعلم عنه أكثر من كونه كتاب الله المنزل على رسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) في الشريعة والأحكام، وأنه المصدر الأول للتشريع، يليه المصدر الثاني وهو السنة النبوية المطهرة.

وهكذا انتهت تلك الفترة دون أن نشعر أو ندرك شيئا أبعد من ذلك عن القرآن المجيد، نعرف شيئا من علومه وتاريخه، وعن الناسخ والمنسوخ، وأسباب النزول، لكننا لا نتجاوز ذلك بكثير، فذلك كله كأنه متروك لذكاء الطالب وممارسته فيما بعد، لم أمضي في المدرسة الدينية أكثر من ثلاث سنوات ونصف لأكمل البرنامج الذي كانوا قد وزعوه على اثني عشر عاما، ولكن أعطوا للطالب الحق إذا أراد أن يختصر الزمن ويضاعف جهده أن ينهي هذا البرنامج بجميع مقرراته في أربع سنوات، أو أقل؛ ولذلك فقد وجدنا أنفسنا بفضل الله وبتكريس كل أوقاتنا لتلك الدراسة وجهود شيخنا ننهي هذا البرنامج في تلك الفترة القياسية من الزمن.

ثم عينت إماما وخطيبا أؤم المصلين، فاستفدت بفضل الله مما حفظت من كتابه (جل شأنه) في أن أفوز في مسابقة لاختيار الأئمة، وحصلت على وظيفة الإمام والخطيب، وبدأت أستفيد مما حفظت من القرآن الكريم في إمامة الصلاة، فعوضت بعض ما فاتني وجعلت من قراءتي في الصلاة فرصة لمداورة القرآن الكريم، والتمكين له في ذاكرتي وقلبي، واستمر الحال كذلك.

وحين جئت إلى الأزهر وجدت الأمر يختلف عن مدارسنا الدينية في العراق، فالأزهر كان يشترط على طلابه آنذاك أن لا ينتسبوا إليه قبل أن يحفظوا القرآن المجيد، ويعلمهم زيادة الحرص على الحفظ، ويجد فيه مجالا لتعلم القراءات، والتجويد وما إلى ذلك، ووجدت علماء مثل الشيخ الغزالي زاد حفظ القرآن في قدراتهم المعرفية، واستعداداتهم الأدبية، فكان الشيخ الغزالي واحدا من أولئك الذين يقرأون في اليوم خمسة أجزاء من القرآن المجيد، دون أن يعيقهم عن البراعة والتقدم في العلوم الشرعية، بل كان حفظ القرآن وكثرة ترديدهم له ومداورته وحفظه يزيدهم أدبا وعلما وفقها وفهما، وبراعة وعمقا في الشريعة والمنهاج، فأسفت على تلك الأفكار الخاطئة التي كانت لدى شيخنا عبد العزيز وأمثاله، التي جعلتهم لا يقتصرون على رفض الحفظ، حفظ القرآن المجيد، بل يعاقبون عليه، ولله في خلقه شئون.

ولكنني أستطيع القول بأنَّ مدارسنا الدينية السنية بصفة عامة كانت مقصرة في توجيه طلابها نحو القرآن المجيد، وتعريفهم بحقيقته، تعريفا جيدا، يدفعهم إلى التعلق به، والعناية بتدبره، وتنمية البصائر به؛ لأنهم ظنوا أنه مصدر تشريع فقط، وأنه شواهد يعضد بها الفقهاء ما يتوصلون إليه من فقه، أو قواعد أصولية أو ماشاكل ذلك، وأعتبر أن ذلك وراء تخلف الخطاب الديني بصفة عامة، والمستوى المتواضع في فهم الحياة والواقع الذي نراه شائعا بين كثير من

المنتمين إلى هذه القطاعات المعرفية؛ ولذلك فلابد لنا من إغلاق هذه الثغرة، وإيلاء القرآن الكريم ما يستحقه من عناية في هذه المجالات.

وحين تجاوزنا المرحلة الجامعية الأولية وانتقلنا إلى الدراسات العليا وجدت أن العناية كانت تتجه نحو ما عرف بعلوم القرآن، لا إلى القرآن ذاته، فهذا يدرس القراءات، وذلك يدرس الرواية، وتاريخ القرآن، وثالث يدرس أسباب النزول، ورابع يكرس جهده على الناسخ والمنسوخ، وخامس على الإعجاز والبلاغة والفصاحة والتحدي، وعلى الجدل في القرآن، أو على أية جزئية أو موضوع من الموضوعات ذات صلة بالقرآن الكريم، ولكنها تبقى مسألة جزئية، أو موضوعا من موضوعات القرآن الكريم التي لا تحصى.

وقد وجدتنا ونحن ندرس أصول الفقه نمضي أياما قد تصل إلى أسبوع وقد تتجاوزه، في معالجة عبارة واحدة من تلك العبارات الملغزة في كتب الأصوليين، ولا نكاد نصل فيها إلى ما يشفي الغليل، ونجد أن العبارة تتعلق بقاعدة يرفضها القرآن من أساسها، مثل "تكليف ما لا يطاق" أو قضية "الحسن والقبح العقليين" أو قضية "تكليف المعدوم" وما شاكل ذلك من عويص المسائل وملغزها، وكان يكفي لو أنَّ الباحثين في العلوم الشرعية والإنسانية والاجتماعية اتجهت أنظارهم مباشرة إلى الكتاب الكريم، إذن لوجدوا فيه نورا وهداية وبصرا وبصيرة تشفي الغليل، وتروي الصادئ دون جهد يذكر، ولكن ذلك الهجر للقرآن والابتعاد عن معرفة حقيقته، أدى بهم إلى تلك المضايق، وأنفقت الأعمار في أمور ما كان ينبغي أن تنفق فيها.

وانهينا تلك المرحلة، وتخرجنا من غير أن نجد تغييرا يذكر في علاقة المنتمين للجامعات والمدارس الدينية مع القرآن المجيد، اللهم إلا على مستوى عصرنة العناوين، وبعض الكلمات؛ لإضفاء نوع من الجدة أو الطرافة على تلك العناوين، وبعد التخرج اتجهنا نحو التعليم، فأخذت موقعي أستاذا للفقه وأصوله في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض، وطلب مني

تدريس كتابين أحدهما في أصول الحنابلة، هو روضة الناظر وجنة المناظر لابن قدامة، والكتاب الثاني في الفقه الحنبلي وهو الروض المربع شرح زاد المستقنع، وبدأت تدريسهما، أخرج عن النص مرة وأعود إليه أخرى، لكن الجامعة كانت حريصة على أن يدرس طلابها الكتابين، ولا يقبل من أحد تجاوز ما فيهما بشكل صريح، فكنت أوجه طلابي إلى ما في بعض القواعد الأصولية من بعد عن القرآن الكريم، وما في تلك القواعد من اعتماد على سنن وأحاديث يغلب عليها الضعف، والبعد عن الصحة، محاولا أن ألفت النظر إلى ظاهرة رصدتها وهي أن قواعدنا الأصولية قد صيغت صياغات متأثرة إلى حد كبير بالمنطق الأرسطي، وآراء ومنطق الذين صاغوها، وكانت تلك الصياغات في حاجة إلى تصديق قرآني، لكنهم لم يفعلوا ذلك، بل اتخذوا القرآن شواهد ونصوصه دلائل مساندة لما صاغه منطقهم وبنته عقولهم.

وحين تبلورت لديَّ بعض الآراء أفضيت بها إلى مدير الجامعة، واستنهضت همته ليأذن لي بعقد لقاء لأساتذة أصول الفقه في الجامعة، وكان عددهم يجاوز الثلاثين، وذكرت له أنني أطمح إلى أن نصل إلى إقناعهم بتجديد هذا العلم، وجعله كما أراد له الأئمة المؤسسون خاصة الإمام الشافعي وأبو حنيفة ومالك وغيرهم، وسيلة ومنهجا لتعليم الاجتهاد؛ لأنَّ مشكلات عصورنا لا يمكن أن نواجهها باجتهادات من سبقنا، ولا بمجرد التخريج على أقوالهم، ولا التفريع عن أصولهم، فلابد لنا من البدء بذلك، وخولني الرجل مشكورا بدعوة أساتذة أصول الفقه إلى ندوة لمدة ثلاثة أيام؛ للتداول في مشكلات ذلك العلم، وطرحت عليهم هذه الظاهرة، ظاهرة اتخاذ الأصوليين آيات الكتاب الكريم شواهد لا منطلقات، والاعتماد على السنن الضعيفة في تأييد ونصرة قواعدهم الأصولية، والضعيف لا يمكن أن يكون سندا متينا لما يسند إليه.

واجتمع الأساتذة من الجامعة وفروعها، واستضافتهم الجامعة، وطرحنا عليهم العديد من مشكلاتنا مع ذلك العلم، ومدى حاجته إلى التجديد أو ما أطلقت عليه مدى حاجته إلى

تصديق القرآن عليه، وهيمنته عليه، وبعد نقاش طويل قائم على خبرات وتجارب ذهب الأكثرون إلى أن هذا العلم بخير وعلى خير، وأن الظاهرة التي ذكرتها مبالغ فيها، وأنه ليس في الإمكان أبدع مما كان، ولم أيأس فطلبت تكرار ذلك اللقاء، وتكرر عدة مرات، دون أن نخرج بأكثر مما خرجنا في اللقاء الأول، وعرفت حكمة القائل:

كناطح صخرةً يومًا ليوهنها فلم يضرها وأوهن قرنه الوعل

فسلمت أمري إلى الله.

وبعد أن شاركت مع إخواني وزملائي في تأسيس المعهد العلمي في الفكر الإسلامي بدأنا مرحلة جديدة، وذلك بالعمل على بلورة إسلاميَّة المعرفة، وتحويلها إلى قضيَّة من قضايا الأمة، وتوجيه الأنظار والاهتمام إليها، حددنا في بادئ الأمر إسلامية المعرفة باثنتى عشرة خطوة، وظهر ذلك في الإصدارة الأولى لكتاب إسلامية المعرفة بتحرير الشهيد فاروقي، ثم أعدنا النظر في تلك الخطوات فتم دمج بعضها ببعض لتصبح ثمانية خطوات، ثم بعد ذلك بقينا نحاور الكثير من حملة الفكر الإسلامي لنتوصل إلى تحديدها بست خطوات، وقمت بصياغتها في الكتاب الصغير الذي أطلقت عليه اسم الوجيز في إسلامية المعرفة.

وفي ذلك الكتاب جعلت الخطوة الأولى للأسلمة: العود إلى الكتاب الكريم، وربط قضايا المنهج والمعرفة به، واستنباط القواعد المعرفية لجميع المعارف في نور هدايته.

ثم السنة النبوية المطهرة، واتخاذها مصدرًا من مصادر المعرفة، يحمل البيان والتطبيق لما جاء في قواعد القرآن الكريم.

وكانت المرة الأولى التي يطلب فيها من أساتذة العلوم السلوكية، والباحثين والكاتبين فيها وفي العلوم الاجتماعية الرجوع إلى القرآن، باعتباره مصدر معرفة في المعارف والعلوم المختلفة،

ومنها المعارف الشرعية أو النقلية، وفي تلك المرحلة لم نستطع أن نقنع الأساتذة والباحثين بأن الأصل في القرآن المجيد أن يكون مصدر معرفة، وأن آياته حافلة زاخرة بالمؤشرات المعرفية في كل هذه المجالات، ومنها مجال العلم الطبيعي، ذلك أنَّ القرآن المجيد وظَّف المعارف الطبيعية توظيفا في غاية الدقة، والتحدي، للاستدلال على وجود الخالق العظيم، والبعث بعد الموت، ووحدانية الخالق، واتصافه بكل صفات الكمال، وانتفاء كل صفات النقصان عنه، وكل ذلك مبسوط في كتاب الله (تعالى)، في أدلة الخلق والعناية، والإبداع الإلهي.

هذه الأدلة التي جعلت البحث في المعارف الطبيعية والإنسانية بحثا لا يمكن أن يغيب عن أذهان الباحثين أو يختفي بأي حال من الأحوال، وصادفتنا عقبات كثيرة، لتصبح هذه البديهية مسلمة مقبولة لدى الأساتذة والباحثين في أنواع المعارف كلها، واتجهت أذهانهم إلى البحث الموضوعي، فكلما طالبناهم بمحاولة التدرب والتدريب على الرجوع إلى القرآن المجيد باعتباره مصدرا للمعرفة بصفة عامة فإنهم لا يستطيعون أن ينظروا إلى أن هذه المعرفة شائعة منتشرة في الكتاب كله، فتنصرف أذهانهم نحو التفكير الموضوعي؛ ولذلك فقد فرضت تلك الاتجاهات علينا أن ينظر إلى القرآن المجيد من خلال موضوعات قائمة في هذه المعارف، مثل الاقتصاد، والتربية، والاجتماع، وعلم النفس، والفقه وما إلى ذلك، ذلك لأنَّ الطريقة قد سلكها الفقهاء من قبل، حين فَصَلوا آيات الأحكام عن البقية وحصروها بكل ما صُدِّر بأمر أو نهي فكانت عند بعضهم ثلاثمائة وأربعين آية، وعند البعض الآخر خمسمائة آية، واستقر الحال عندهم على ذلك.

وانطلاقا من هذا المسلك الفقهي التراثي التاريخي انبثقت فكرة التكشيف، أي تكشيف آيات القرآن الكريم، وفقا لمفاتيح العلوم المعاصرة الإنسانية والاجتماعية، فكلفنا متخصصين في علوم المكتبات بأن يحصوا جميع مفاتيح تلك العلوم والمعارف ويضع لكل مفتاح مجموعة من

الأمثلة، لِتُقَدَم للمتخصصين لإجراء عملية التكشيف، ولم تكن فكرة الوحدة البنائية للقرآن المجيد آنذاك قد تبلورت لدينا، ولم نستطع أن ندرك في تلك المرحلة أن ذلك سوف يؤدي إلى تعضية القرآن وتجزئته، وسلوك مثل المسلك الذي سلكه أولئك الذين كفى الله رسوله شرهم، أي الذين جعلوا القرآن عضين. المهم أننا عهدنا إلى باحثين في مختلف فروع المعرفة بعد أن سلمناهم تلك المفاتيح أن يقوموا بعمليات ما سمي بتكشيف الآيات القرآنية.

ولم تمض غير فترة قصيرة حتى اجتمعت لدينا آلاف البطاقات، تحت عناوين تلك المفاتيح التي أعدها المكتبيون لتصنيف المكتبات تحت عناوين تلك المفاتيح، وحين قمت بتصفح بطاقات الاقتصاد مثلا وعلم النفس؛ وجدت العجب العجاب، فتحت عنوان وسائل الإنتاج مثلا وجدت جميع الآيات التي وردت فيها كلمة الأرض؛ لأنَّ المتخصصين في المكتبات اعتبروا الأرض وسيلة من وسائل الإنتاج، وكذلك الماء، والأنعام وما شاكل ذلك، فاقتنعت بأن القرآن لو قدم بهذه الطريقة فلن نستطيع أن نحقق به تحديا ولا إعجازا، ولا الهداية والرحمة التي نزل بها، واقتنعت بخطأ ذلك التوجه وخطأ الإيغال فيه، والذهاب به إلى النهاية، فتوقفنا عن ذلك، وألغينا ذلك البرنامج.

وبقينا في بحث جاد مستمر عن البديل، فكانت هناك عدة مقترحات منها: المقترح القائل بضرورة العودة إلى فكرة الوحدة البنائية الداخلية لكل سورة من سور القرآن، وتحديد ما فيها من مؤشرات من المتخصصين في مختلف المعارف، فيطلب من متخصصين في اقتصاد واجتماع وعلم نفس وما إليها مثل المتخصصين في الفقه والأصول ونحوها، أن يقرأ كل منهم السورة القرآنية مستفيدا من خبرته وتجربته في تخصصه؛ لكي يحدد تلك المؤشرات في الآية الكريمة، ويستنبطها منها ويقوم في ضوء ذلك بالتصديق الهيمنة بعد الاستيعاب والتجاوز على تلك المؤشرات التي وصل الإنسان إليها بتراكم المعارف عبر العصور.

ولما عُهد إليَّ بالقيام بتدريس طلبة الدراسات العليا في الجامعة الإسلامية العالمية في ماليزيا مادة إسلامية المعرفة حاولت جعل درسي ذلك ميدانا لتطبيق تلك التجارب كلها، والعمل مع الباحثين من طلبة الماجستير والدكتوراه على الوصول إلى الحل الأمثل، فاقتنعت بعد تدريس دورتين من طلبة الدراسات العليا بأن ذلك كله غير مجد، وأن القرآن المجيد إذا أريد له أن يكون مصدرا من مصادر المعرفة، أو أهم مصدر للمعرفة، فلابد من قراءته كما أنزل وكما هو، وكما تركه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وتدبره حق تدبره، وتلاوته حق تلاوته، وصناعة عقولنا به، فلابد من أسلمة العقل، وجعله عقلا قرآنيا، قبل كل شيء، ثم إطلاقه في سور القرآن متدبرا متأملا متفكرا متعقلا مجتهدا، فإذا صنعنا قلبا وعقلا صناعة قرآنية فقد وضعنا أقدامنا على الخطوة الأولى الصحيحة لأسلمة المعرفة وغيرها. وهنا انضمت إلى فكرة الوحدة البنائية فكرة الجمع بين القراءتين، قراءة القرآن وقراءة الكون بعقل واحد، يكاد يضيئ ولو لم تمسسه نار، بعد أن يستضيئ بنور القرآن ويهتدي بهدايته.

وحين تأسَّست أو أسَّسنا جامعة العلوم الإسلامية والاجتماعية للدراسات العليا في ليزبرج قرجينيا تأسست بعد تبلور هذه الأفكار وبلوغها مع القرآن هذا المستوى؛ ولذلك فإن الناظر في أدلة تلك الجامعة الصغيرة الخاصة بالدراسات العليا يجد أن موادها كلها كانت تقوم على دعامة أساسية واحدة هي: كيف نوجد المعرفة القرآنية التي تتعلق وتتجلى في مختلف هذه المعارف الإنسانية والاجتماعية والنقلية، والطبيعية؛ ليتخلص العقل المسلم من سائر الانشطارات والتمزقات التي أصيب بها، وليخلص ذلك العقل المسلم دينه لله، وليبرأ من الشرك ويتخلص من آثاره إلى الأبد، ولتعيش في ذلك العقل حنيفية الإبراهيمية السمحاء، منقادة بوجهة: ﴿**إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ (**الأنعام:79**)، مارة بملة أبينا إبراهيم، هو سمانا المسلمين من قبل وفي هذا، وفي كل محطة من محطات الأنبياء

والرسل تتجدد هذه الصبغة، وتكتسب إلى قوتها قوة، وإلى منعتها منعة، وإلى ثباتها رسوخا، إلى أن بلغت خاتم النبيين (صلى الله عليه وآله وسلم)؛ ليعلن الكمال والتمام: ﴿.. **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا** ..﴾ (**المائدة:3**)، وليعلن تمام الكلمة: ﴿**وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾ (**الأنعام:115**)، وليعلن الحفظ الإلهي، والعصمة الربانية من التبديل والتغيير: ﴿.. **لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا**﴾ (**الكهف:27**).

وفي السنوات العشر التي أمضيتها في التعليم، تعليم طلبة الدراسات العليا في المعهد العالمي للفكر الإسلامي في ڤرجينيا كانت التجربة مختلفة، فطلابي كانوا جميعا من الأمريكيين، يندر وجود من يعرف العربية فيهم، فكان التحدي أن نعلم هؤلاء القرآن المجيد وكيفية اتخاذه مصدرا للمعرفة واستنباط مختلف المعارف منه، وكيف يمكن أن يحدث ذلك وهم بعيدون عن لغة القرآن ولسانه، من العسير عليهم إن لم يكن من المتعذر أن يفهموها ولو بشكل ظاهري، فما بالنا بالاستنباط، والغوص على المعاني والتدبر، وهنا ألهم القرآن نفسه عن فرق دقيق بينه وبين كل ما عداه، ألا وهو اعتماده على النزول على القلب، فهذا القرآن نزل على قلب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): ﴿**وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ**﴾ (**الشعراء:192–194**)، ﴿**قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللّهِ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾ (**البقرة:97**)، إذن فهو كتاب نزله الله (جل شأنه) على قلب نبيه، فكأنه لم يمر بقوى الوعي الأخرى إلا بعد أن استقر في القلب، ومنه بدأ يضخ كما يضخ الدم إلى بقية الأعضاء ومنها قوى الوعي.

إذن فنحن بحاجة أن نقنع طلابنا هؤلاء بتعلم عملية التنزيل على القلب، وإيقاظ الفطرة وقوى الوعي كلها، بحيث تتعاون هذه القوى جميعا على فهمه وتذوق حلاوته، والانفعال به، ولا

شك أنَّ ذلك سوف يدفع هؤلاء إلى تحمل مشاق تعلم لسان القرآن، وكل ما يقتضيه ذلك من جهد لا يستهان به، خاصة وأن العربية لم تخدم كما خدمت اللغات الأخرى بعمليات تسهيل وتيسير؛ ولذلك رأيت بالفعل بعد تلك التجربة كثيرا من هؤلاء يبحثون عن فرص لتعلم اللغة العربية، لا لشيء إلا لقراءة القرآن، لكن إلتفاتتنا إلى عملية النزول على القلب بالطريقة التي ذكرنا مع كثرة تكرار وترديد الآيات ساعدت كثيرا على جعلهم يتفهَّمون القرآن ولو بالاستعانة مرة أو مرتين بالترجمات بحيث كانوا يأتون بنوع من الأفكار والمعاني بعد القراءة المتكررة للسورة التي قد تبلغ خمسين مرة في بعض الأحيان، كانوا يأتون بمعان شديدة الأهمية، وتعطيهم ثقة بالنفس هائلة، فيقبلون على القرآن الكريم إقبالا لا نظير له.

وهنا وجدت أن من الضروري أن أنقل لطلابي خطورة قراءة بعض التفاسير المؤدلجة، والتفاسير المحشوة بالإسرائيليات، أو الأحاديث الضعيفة والموضوعة وما إليها، وضرورة إدراك أن هذا القرآن يفسر بعضه بعضا، فما أحكم الله آياته في موقع جاء بها مفصلة في موقع آخر، بحيث بدأت أميل إلى فريق العلماء الذين كانوا يرون أن هذا القرآن المجيد غني عن التفسير بنفسه، وأن تفسيره من داخله، وأن بيانه في ثنايا سوره، وفي تلاوة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم له)، وأن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كان حين يسألونه عن آية تشكل عليهم يحيلهم إلى آية أخرى فيها بيانها، وتفصيلها، وهكذا تبلورت عندي متطلبات تفسير القرآن بالقرآن، وبدأت أتذوقها وأشعر بعمقها وأن من أهم أدواتها أن نزيل الوقر عن الأذان، وأن نرفع الحجب بيننا وبين القرآن، وأن نكشف الأغشية عن الأبصار فلا ندع غطاء يحول بيننا وبين آيات الكتاب الكريم، أو يجعل بيننا وبينه حجابا.

واعتبرت نفسي قد وجدتها، وإذا بها تقودني إلى ميدان واسع فسيح، يقتضي تجاوز ما عرف بعلوم القرآن، كالعلوم التي كتب فيها الزركشي برهانه، والسيوطي إتقانه، والزرقاني مناهله،

وكذلك بقية الكاتبين، الغابرين منهم والمعاصرين، وذلك يقتضي فرقًا من الباحثين من أهل العلم؛ ليعيدوا النظر فيها، ويعلموا الناس أن لا تكرار في القرآن، ولا ترادف، ولا اشتراك ولا تواطؤ فيها، ولا لحن ولا اختلاف ولا شذوذ ولا منسوخ بأي شكل من الأشكال، ولا متشابه، بأي حال من الأحوال، فكله محكم وكله مفصل وكله متشابه، وكله كلام الله لا مبدل لكلماته، هذه الفرق العلمية التي نحتاجها لإعادة النظر فيما عرف بعلوم القرآن وإعادة كتابة هذه المعارف من جديد، وفقا لهداية القرآن من داخله، والتزاما بتصديقه وهيمنته، إذا تم هذا المشروع، ومن أَوْلَى من الجمعية المحمدية للعلماء بتبني هذا المشروع وبلوغ غايته، ونفع العالم الإسلامي كله به، بل وإيصال أنوار القرآن بذلك إلى العالم كله، خاصة وأن أمينها العام رجل همام، كتب في هذه العلوم وعانى فيها مثل ما عانينا.

إن هذا المشروع، مشروع إعادة النظر في علوم القرآن، وإعادة بنائها من جديد، سوف يحرر القرآن المجيد من كل ما أحيط به من أغلال وحجب أريد بها أن تحجب نوره، وتؤثر على هدايته، فإذا تم ذلك، وبدأ أهل العلم يفسرون القرآن بالقرآن، فإننا نكون قد تجاوزنا العقبة، وعبرنا مجمع البحرين، لننعم في رحاب القرآن المجيد بالهداية والعناية الإلهية.

سائلين العلي القدير أن يجعل القرآن المجيد ربيع قلوبنا، ونور أبصارنا وبصائرنا، وأن يهدينا به سواء السبيل، إنه سميع مجيب.

وفي الختام أشكر أخي الفاضل الأمين العام لرابطة العلماء المحمدية الأستاذ الدكتور/ أحمد العبادي، أخي وابني وصديقي وزميلي ورفيقي في طريق القرآن المجيد، وأشكر الرابطة المحمدية للعلماء على هذا اليوم التكريمي، وأسأل الله لنا ولكم التوفيق إنه سميع مجيب، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.